سحر النيل

بقلم : جنفيف جيناري

ترجمة : صديق شليبوب

كنت ولا زال أحس الوحدة والانفراد بين الآثار المصرية سواء كان ذلك تحت قبة هيكل السرابيوم حيث ترقد المحول المقدسة ، أو في ضوء القمر بين أعمدة هيكل الكرنك ، أو في المقبر أمام اللاعبين بالرمال . وبين زهور اللوتس .

أجل ، كنت دائما أشعر بخوف لا أستطيع تفسيره ، ولعلى كنت اشعر بأني لست منفردا ، بل ان هناك شهودا غير منظورين يرمقونني بأعين قاسية ، وكنت أحس بخوف بهم من ظهور ، هو اشد من مومياء أو شبح فرعوني ، أو ظهور احد كهنة تلك الديانات الجهنمية ، اى ظهور روح خبيثة أو حيوان شرير .

على أنى عملت راضيا مسرورا عندما عرض على رئيس تحرير الصحيفة التى أعمل فيها السفر الى مصر للقيام بأول تحقيق صحفى بعد الحرب العالمية الثانية عن الحفريات بمصر ، وعن العلاقات بين الدوائر المصرية ومختلف البعثات الأجنبية . وأم أكن زرت مصر منذ عهد بعيد حين كنت مدة شتاء كامل أعمل سكرتيرا للورد ح ... وكنت بعد ذلك أوطد النفس على العودة اليها ثم أخلف ... وهكذا غادرت لندن فى صباح أحد أيام شهر ابريل سنة ١٩٤٩ قاصدا الى القاهرة مباشرة .

وفهمت عندما اتصلت فيها بالأوساط التى تستطيع تسهيل مهمتى أن التحقيق الذى سأقوم به سيكون شاقا ولن

يترك لى الوقت الكافى لأتصل باصدقائى القدامى ولزيارة الأماكن التى لا تهم أحدا غيرى .

ولما عرضت استعدادى لزيارة جميع أماكن الحفريات قيل لى فى الحال :

ـ اذن قابل « جيمس و « جيم » .

ولم يكن هذا الاسم غريبا عنى ، ولكنه لم يذكرنى بشخص معين ، فذهبت اسأل من يكون « جيم » هذا ؟ فقيل لى أنه نصف مجنون ، وأنه كان طالبا فى معهد الآثار ، وأنه يعيش منذ سنتين وحيدا فى قرية تعاج بسلاد النوبة العليا ، وأنه تعلمت به مهمة نقل الكتابة الموجودة فى هيكل صغير يرجع الى ما قبل هذا التاريخ بكثير ، وأنه قد تعلب رأسا على عقب النظرية الخاصة بالفن الذى يرجع الى ما قبل عهد الأسر .

وتساءلت لماذا لا أزوره فى الحال ؟ .

وحذروا يهزاون بى ، ولكنى تمسكت برأيى ، ثم تذكرت رويدا رويدا ذلك الشاب الشاحب الوجه والأسمر اللون الذى كان يدعى بهذا الاسم والذى كان يتردد على المنزل الذى كان الورد ج .. فى القيوم حيث كانت ضيافته تستقبل أصدقاءهن .

وشعرت بالضيقة والسعادة فى مساء ذلك اليوم عندما ركبت قطار الليل من محطة القاهرة . وتناولنى احساس ، بعد أن غادر القطار المحطة واخذ سمته نحو الجنوب مخترقا الصحراء كأنه يسير الى آخر العالم لأنه لا يوجد بعد نهايته عند الشلال خط حديدى آخر أو طريق ـ لا شىء سوى النهر والبواخر البطيئة السير ، وكنت مهبطا فى اركب قطارا لا يصل خطه بخط آخر ، واضطجعت فى سريرى ورحت فى الصباح اخاطت تموجاتها نهرات القطار فكانتا ، أنا والقطار ، نسير الى الفضاء المطلق ، الى نقطة النهاية .

وفى الصباح استيقظت على اسم الأقصر ينادى به على الرصيف ، ثم سار القطار فغادرت السرير وفتحت النافذة وكان الجو قد أخذ يشتد ويكسو الرمل الباهت اللون لهبا تحت أشعة الشمس المنتشرة فى كل مكان . وبعد أسوان اسرع القطار فى سيره بعض كيلو مترات ثم توقف .

كنا وقتئذ فى أواخر شهر ابريل ، ولم يكن كثيرا عدد الركاب المسافرين فى الباخرة التى تسير من الشلال الى وادى حلفا وتصل بين آخر محطة للسكة الحديد بمصر وأولها فى السودان ولم أجد على ظهر الباخرة فيما عدا رجالها غير جماعة من السائحين الأمريكيين ، وكان عدد النساء يزيد على عدد الرجال ، وكن فى ذلك الطور من النضوج الذى تحتفظ فيه النساء بروائهن ، وقد لبسن ثيابا ناصعة البياض ، ووضعن قبعات من القش على رؤوسهن ، وامسكن بأيديهن مظلات من الشعر .

ووقفت الباخرة فى أنهور بناء على طلبى ، وكنت قد كتبت من القاهرة اطلب دليلا يرافقنى من انهور الى نساح ، وقد وجدته بانتظارى ، كما كان هناك حماران قد أعدا لنا فركبناهما ، ولم

[illegible] فقصدنا الى بيت سائرين على ضفة النيل ـ وكنت أشعر بشوق وأنا أتعرف من جديد الى جمال تلك المناظر الخالدة فى مصر ، منظر أشجار النارنج التى ترسم خطوطا فوق الارض المكسية باشعة الشمس ، وعائلات الحمير الصغيرة ، وجدران منازل القرية المسه من الطوب واعناق الزجاجات ، والحقول التى تدور حول السواقى .

كان الدليل ، واسمه ابراهيم ، يتحدث بين حين وحين بلغة انجليزية صحيحة ، وكان يستعد لاستقبال التراحمة ، كما كان قد التحق بخدمة « جيمس وجيم » فى السنة الأولى لاقامة هذا الأخير فى البلاد .

قلت له وقد ابتدأت أشعر بميل اليه

ـ هل تعرفه على حقيقته ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا تركت خدمته ؟

وتعجبت كيف أحاشى ابراهيم فى حرأة وجرم .

ـ سله عن ذلك عندما تراه .

وترددت قليلا ثم قلت .

ـ كان « جيمس و . جيم » صديقى

فنظر الى وقال

ـ لقد أحسنت صنعا اذن بصحبتك .

ولم استطع بعد ذلك أن أحمله على اضافة كلمة واحدة الى ما قاله فى هذا الصدد . وصار يرد على أسئلتى بكلمات مقتضبة ـ ولا يعرض لهذا الموضوع الذى يهمنى .

وعندما وصلنا الى بيت صديقنا فى منزل « جيم » فلم نجده . وقال لى ابراهيم انه تعود منذ عامين أن يمضى الليل فى الصباح الى حيث الهيكل ثم يعود فى المساء . ولكنه مرت ثلاثة أيام لم يعد من الهيكل الى منزله !

لذلك قررت بالرغم من أن النهار قارب الزوال أن أسير الى الشاطىء الغربى . وكانت ساعات المساء والليل الشديدة قد أقبلت ، وهب نسيم رطب ومنعش [illegible] وقد احببت مياه النيل منذ عرفتها لأنها تشترك بالسر الذى يكتنف مصر ـ فقد كانت الآلهة فى العهود الغابرة تعبر هذا النهر الى هياكلها العظيمة ذات السوارى المكللة بالأعلام . .

وعندما وصلنا الى الشاطىء الآخر ظهر لنا الهيكل بعيدا تحت اشعة الشمس الغاربة واخترنا الطريق اليه فى ساعة من الزمن ، وقد ركب كل واحد منا حمارا .

* * *

كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلنا الى الهيكل فربط ابراهيم الحمارين واخذت أنادى بالانجليزية ولكن أحدا لم يجب . وكانت أشعة القمر ترسل ضياء لامعا ينعكس على عمد الهيكل وجدرانه الخارجية وتبرز رسوم الآلهة ورؤوس الأسود وأشياء أخرى والقصور . ثم دخلت الهيكل يتبعنى ابراهيم . وكانت القاعة الكبيرة فارغة الا من العمد القائمة ، ولا سقف يعلوها فكانها أذرع ممدودة الى السماء تاصلاة والضراعة . وأخيرا اكتشفت « جيمس و . جيم » فى احدى الردهات الصغيرة .

واملة كان قد رآنا نقصد الهيكل ، وسمع نداءاتنا ولكن كل مظاهر الرحل كانت تدل على التعجب والقلق . وكان واقفا أمام مكتب ملىء بالأوراق والدفاتر تنيره مصباح صغير . وتذكرته حين رأيت عينه السوداوين وانفه الكبير كانه منقار نسر . ولكن شكله كان قد تغير ، وهذا هو أمامي الآن عاري الجزء الأعلى من جسمه ، ويلبس سروالا قصيرا من قماش قاتم اللون ، وقد قصر جسمه

ولم أتمكن من تحمل نظراته الشبيهة بنظرات الوحش عندما يطارده العباد حين قال :

ـ من أنت وماذا تريد

وفجأة رأى ابراهيم تجمعت معاني الذعر النارية في نظراته . وقال ابراهيم

ـ انك تعرفني . لقد رافقت هذا السيد الانجليزي الى هنا لانه يدعي انه من اصدقائك ، بعد أن قصدنا منزلك فلم نجدك .

وأخذت الأمور تتسلسل بعد ذلك واطمأن « جيمس » الى أني من ذوي النوايا الحسنة ، وحدثني في تلك الليلة عن أعماله واكتشافاته .

جلسنا نحن الثلاثة في قاعة الهيكل الكبيرة . وكنت قد تعلمت في الحرب الاخيرة أن اتعرف من منظر الرجال على مدى التعب الذي أصابهم . وقد بدا « جيمس » منهوك القوى . وقال لي انه مصاب وانه لن يعيش طويلا ، فقد استقرت رصاصة في رئته اثناء الحرب في بلاد الصومال سنة ١٩٤٠ وانه لم يستمتع اخر جهد وانهيا الآن تتسابق ارمات بين الغيبة والغيبة .

ثم ذكر لي انه كان يحب الآثار المصرية وانه في مستهل حياته قبل أن يكون موظفا بشركة قناة السويس ارضاء لرغبة والده ، وانه بعد الحرب بحث عن اية وظيفة تعيده الى مصر ، ولقي صعوبات في سبيل ذلك بصفته انجليزيا ولكنه لم يلبث ان عرض عليه العمل في هيكل ليستاح فقبل في الحال . وقد انقضى عامان وهو في كل يوم يحتار النهر ، وصعف بصره لفرط انعكاسه على كتابات الهيكل تحت اشعة الشمس او في الأماكن المظلمة محاولا حل طلاسمها

فكم من ساعات طوال قضاها في مواقف مختلفة لا يتصورها العقل حاملا جهده مصباحا ومعمما النظر في الكتابات . بل انه كان في بعض الاحيان مضطرا أن يمسك المصباح باسنانه

وكانت هذه الحياة احدث ترويق له ، خصوصا بعد أن اكتشف أن الحياة لا تتطلب في الحقيقة سوى النزر اليسير من القوت لتظل متماسكة . حفنات من الماء في كل يوم وبعض البلح او بعض الجراد ... والانسان يستطيع أن يعيش بعد ذلك مائة سنة بين الرمال والصخور وتحت اشعة الشمس المسلطة على وجه الأرض . كما كان الأمر في بدء الخليقة .

واستطاب الحياة على هذا المنوال حتى خيل اليه أنه اكتشف الطريق الذي يصل الانسان بالطبيعة والذي تقطعه المدنية .

وهكذا القى فى النيل كل ما كان من لديه من ادوية وعقاقير ، ثم رمى كل الأوراق التى تذكره بماضيه ، وقطع كل صلة بدوبه . . حتى جوار السمر الذى يضمن له حمايه دولته ويدل على شخصيته تخلى عنه الى اعماق النهر حيث تذوب أوراقه شيئا فشيئا . أليست شعوذة عرفت تلك الأهميه التى نعلقها على رقم ؟ وهل يحتاج الانسان الى رقم فى سلسلة الحوادث ليصبح رجلا ؟ وفى تلك الأثناء استعمى « حيم » عن خدمة ابراهيم لأنه — اى ابراهيم — اصبح أقرب الاشياء الى حياة المدينة .

وانخفض صوت « حيم » شيئا فشيئا لأنه أخذ يتحدث عن اكتشافاته ، وقال انه لم يكن يرجو فى اول الأمر ان يلازمه التوفيق ، ثم دهش عندما تم اكتشافه .

وقص « حيم » كيف أن فلاحا وجد مره شكلا عجيبا مصنوعا من العاج فى موضع قريب من اساس الهيكل فأخذ « حيم » يحفر فى هذا المكان حتى وصل الى الكشف عن عدد من الحجارة المقطوعه فى شكل سهام ، واوان من الفخار الأحمر والأسود ذات اشكال عجيبة ، وقوائم مقدسة . وكانت هذه الأشياء فى مذهبه تعود الى خمسة آلاف سنة ، أو قبل ذلك . ويعتقد أن ذلك العهد كان طور الانتقال الذى قام بين عهد التحارب الحجريه وظهور الفن فجأة فى العهد السابق للفراعنه . وهكذا صار فى مقدورنا ان نقول ان الفن الكامل الذى ظهر فى عصر الأسر الفرعونية الأولى كان نهاية منطقية لمدينة سابقه . وأدى هذا وضع تاريخ الفن المصرى فى عصوره الأولى ولم يكن ظهوره المفاجىء امجوبة كما كان يظن من قبل .

وأطرق « حيم » قليلا ثم قال وهو يبتسم ابتسامته الهادئة .

— لعله لم يكن من حقى أن أكشف عن هذه الظاهره التى كانت تلى الآن سرا خاصا بمصر وحدها .

فابتسمت لهذه الملاحظة ولكنه أشاح بوجهه عنى ثم استأنف حديثه فشرح كيف انه عاد وصل الى هذا الكشف على وضع تقرير ليدل علماء الظاهره الى مدى اهمية اكتشافه . وكان الوقت ملح عليه بالاسراع لأنه كان يشعر بانحطاط قواه — وأخيرا انتهى كل شىء واراد أن يراجع للمره الأخيره تقريره عن الأصول الحجرية فاقام أياما فى الهيكل لا يعود الى منزله حتى أتم عمله .

ثم قادنى الى حيث توجد بعض الآثار التى اكتشفها فلم أكد القى نظرة عليها حتى دفعنى الى خارج الغرفه وأغلق الباب على الكنوز التى تضمها ووضع المفتاح فى جيب سرواله القصير ثم التفت الى وقال :

— انه عجيب حقا أن تكون قد وصلت اليوم لأنك لو أتيت غدا لما رأيتنى — فلماذا أتيت ؟ وما الذى أوحى اليك بالمجىء ؟ لا اعتقد بالمصادفة بل أرى أن الأمر كان يجب ان يكون كذلك .

فماذا وراء هذا ؟ .

وبدا عليه انه يفكر ويتألم .

— اللهم الا ان يكون ... ولكن من

يدري ؟ . لعلك جئت تحمل شرا ... أو انك اقبلت لبعض الخير . لم اكن بحاجة اليك .

ورأيت من جديد الدمع يسيل على نظراته ؛ كما رأيت ابراهيم يهز رأسه بطريقة خاصة لمحت فيها شيئا من الفهم وكثيرا من الشفقة .

قال « جيم » :

ـ يجب أن تذهب ، فلم يبق لدينا ما نفعله هنا . لتذهب في الحال لأني لا اريد قضاء ليلة اخرى في هذا المكان . ولن اطمئن الا بعد ان احمل وثائقي الى القاهرة وأقدم تقريري .

واعترضت بصعوبة عبور النيل في ساعة متأخرة من الليل . وقلت ان من الخير ان ننتظر حتى الصباح . فقال ابراهيم مترفقا :

ـ بل من الخير ان نذهب .

وركب « جيم » وابراهيم احد الحمارين وركبت الآخر . واكتشف ابراهيم بين شجيرات القصب عند الشاطىء زورقا صغيرا ركبناه .

وكان « جيم » يحمل حقيبة صغيرة من الجلد ، ويظهر لونه أشد سوادا لما كان عليه في ذلك الليل البهيم ، وقد القى على صدره قطعة من النسيج القاتم اللون . وكان الريح يصطفق على صفحات الماء ويمزج صوته بتكسر الأمواج على جانبي الزورق . ولم البث أن شعرت بهدوء في اعصابي ، بل لعلي لم احس رقة لليالي النيل العجيبة وروعتها كما شعرت بها في تلك الليلة .

ولعلي استسلمت لسلطان الكرى بعض الوقت لأني استيقظت فجاة على رجة قوية اماتت الزورق ، ونحن على قيد امتار من الشاطىء واعقب هذه الرجة صوت صراخ « جيم » .

كان قد أتى بحركة طبيعية ليحفظ توازنه فانزلقت الحقيبة من يده ووقعت في الماء ، فاندفع وراءها واخذ يسير في النهر ونداء الى الأمام حتى بلغت الماء صدره ثم صار يهبط شيئا فشيئا حتى غمرته فاندفع ابراهيم وراءه وعاد به وقد اغمي عليه واضجعه على ضفة النهر تحت اشعة القمر .

وانطلق الزورق يتأرجح في النهر على غير هدى .

* * *

لا أزال عندما اذكر حوادث تلك الليلة وكيف نقلنا « جيمس و . جيم » الى منزله الحقير فيساورني احساس بالعرق يتصبب من جسمي .

وارتفعت درجة حرارته واخذ يهذي . وكان يكلمنا بدون انقطاع وينفوه بعبارات غير مفهومة . ولكني أدركت بعد قليل انه يريد ان يقول اني مسئول عن ضياع وثائقه . ولم يكن هذا الاتهام حقيقيا ولكني شعرت بأني مجرم بعض الشيء . وقد كان في هذا الحادث الذي حرم « جيم » من ثمار جهده الطويل جانب غير مفهوم يتمثل فيه القدر المحتوم . فلولا محاولتي في هذه الليلة لسارت الأمور في مجراها الطبيعي ووصل « جيم » سالما الى القاهرة وحقيبته مليئة بالأوراق والوثائق .

ومرت ساعات وانا الى جانب سريره احدثه لأني كنت اريد ان يفهم اني مخلص

في عواطفي وتصرفاتي ، وأنه لا ذنب لي فيما حدث . وكنت أطالع في نظراته الهائمة معاني الحقد ، ولكني لم أعترف بالجدلان .

الحت على السرير وأقبلت أحدثه كما يهدهد الطفل الصغير ، واجتهدت في أن أشرح له بأن المصادفة جمعتنا لأستطيع أن أشهد بأن العمل الذي قام به كان عظيما ، وعلى كل حال فالأصول لا تزال موجودة في مخزن الهيكل ، ولا يتطلب من صياغة التقرير من جديد سوى أيام معدودة . وأخذ يهدأ شيئا فشيئا .

وعند الصباح حملناه على عربة من العربات التي تجرها الأبقار الى مرسى النهر في انتظار وصول الباخرة البلجية لتقله الى القاهرة . وكان « جيم » قد فقد وعيه .

وكانت الألفاظ التي تفوه بها في هذيانه تتردد في ذاكرتي ، ونظراته الهائمة المعلوءة على الذعر والحقد لا تبرح مخيلتي . وكان تيارا خفيا ينقل ذلك الذعر الى نفسي فصرت أرغب في وصول الباخرة في أقرب فرصة لأخلص من ذلك الجو الرهيب . وأخذت أفهم الشعور الذي استولى على « جيم » عندما قال :

ـ لعله لم يكن من حقي أن أكشف عن هذا .

وشعرت كأني راكع تحت وطأة لعنة . ثم أخذت أبذل هذه الأوهام ، وأحدث نفسي بأن هذا الاكتشاف كأنه لم يكن ، وأننا جميعا صحبة مصادفة غريبة .

وأقبلت الباخرة ، فشرعت أهمس « جيم » وأصرخ في أذنيه .

ـ استيقظ فالباخرة قد وصلت

وفتح عينيه في هدوء ونظر الي فاذا عليهما شبه غشاوة تدل على قرب فقدان الشعور ، وفهمت أنه أشرف على الموت . وأدرت رأسه نحو الباخرة فاذا نظراته قد تغيرت فجأة ولمحت فيها بريقا يدل على الفهم . ولكني لم أكد الحظ هذا البريق حتى انطفأ واغمض « جيم » عينيه من جديد .

* * *

دفنا « جيمس و . جيم » باسوان في حديقة الدير الكاثوليكي ، وكنت يوم وفاته رسلت الى اصدقائي بالقاهرة أنقل فيها النبأ بانطباب الكشف الذي انتهى اليه « جيم » في الهيكل القائم على مشارف صحراء ليبيا . ولم التفت الى ما سيقوله عني اولئك الأصدقاء ، ولعلهم سيعنوني بالحمق . ولكني رأيت من واجبي نحو صديقي أن افعل ذلك .

واقمت خمسة أيام في اسوان . وكان المقيمون في فندق كتاراكت قليلي العدد . وكان الماء مثلجا في أكوابه في حين بلغت درجة الحرارة في الظل ٣٨ . وكان بواب الفندق الايطالي ينتظر بفارغ الصبر سفر آخر نزيل بالفندق حتى يغلق ابوابه ويقصد الى شاطىء النهر .

وانهيت مهمتي الصحفية في سهولة ويسر . ولم اسمع بعد ذلك شيئا عن هيكل ليساج .